الفصل الثامن

خطأ موفق

لقد كان التقرير الذى أرسله ده رنى عن حديثه مع إبراهيم أصرح من الخلاصة التى بعث بها إلى السير إدورد كدرنجتن . وكان من أثر هذه الصراحة أن وزير البحرية الفرنسية أمكنه أن يدرك تلك الحقيقة البارزة ، وهى أن القائد المصرى ، مع انصياعه لحكم العقل ، لا يقبل أن يقيد نفسه إذا تركت لليونانيين حرية العمل . أما المذكرة التى أرسلت إلى أمير البحر البريطانى فقد كانت غاية فى الإيجاز ، وكان أظهر ما فيها قولها : « لست أشك فى أن إبراهيم مصمم على البقاء هنا » ، ولكنها سكتت عن إصراره على أنه لا يرتبط بأمر لا يرتبط به اليونانيون أيضاً [١] .

ولسنا نريد أن يفهم من قولنا هذا أنه كان يبغى إيقاع زميله فى الخطأ ، بل نؤكد أن ذلك لم يكن قصده . وكل الذى نرمى إليه أنه عجز عن إيضاح جانب من حديثه مع إبراهيم ، أوضحه وأكده فى تقريره المفصل . ولا شك فى أنه كان ينوى شرح هذه التفاصيل شفهيا ، ولكن الذى ترتب على بعثته أن الصورة الأولى التى انطبعت فى عقل كدرنجتن من إبراهيم ، خلت من أهم الحقائق التى تبينها ده رنى من حديثه معه .

ولم يقتنع كدرنجتن بأن مذكرته الرسمية لإبراهيم المؤرخة ٢١ من سبتمبر

(١) بورشير فى كتابها السالف الذكر الجزء الثانى ص ٣ .

سنة ١٨٢٧ قد أحدثت أثرها المطلوب . ولذلك بعث إليه بمذكرة أخرى هذه عبارتها :

« سيدى : لما كنت قد جئت إلى هذا الثغر (نوارين) لأوضح الأوامر التى أسير عليها ، والضرورة التى توجب على إطاعتها والعمل بها إلى أقصى حد مهما كانت النتائج المترتبة عليها ، فإنى أحب أن تسمحوا لى بأن أقوم بهذه المهمة بحضور كبار قواد الحملة التركية جميعهم »[1] .

ولما كان الاجتماع الذى عقد على أثر هذا الخطاب عظيم الخطر فى بيان الدور الذى اضطلع به إبراهيم فى التاريخ ، فإننا نميل إلى إيراد التقرير الذى كتبه عنه الضباط المرافقون لكدرنجتن بنصه ، وهو معنون « مذكرة عن الاجتماع الذى عقد فى نوارين فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٢٧ مع إبراهيم باشا » وهذه صورته :

« لما كان نائب أمير البحر السير إدورد كدرنجتن قد جاء إلى مياه نوارين فى ٢٤ سبتمبر بقصد الاجتماع بإبراهيم باشا ، فقد حدد إبراهيم باشا صباح اليوم الثانى لاستقبال سير إدورد وده رنى ، الذى جاء إلى نوارين فى الوقت نفسه مع أمير البحر الإنجليزى .

« وفى الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٥ نزل السير إدورد إلى البر يصحبه الكابتن كرزن Captain Curzon قائد البارجة آسيا والملازم دلكى Dilke والمستر داير Dyer سكرتيره والكولونل كرادك Cradock والمستر كدرنجتن .. وقد اجتمع هؤلاء بأمير البحر الفرنسى ونفر من ضباطه قرب الساحل ، ثم ساروا جميعاً إلى خيمة إبراهيم باشا ؛ وجلس جميع الضباط الأتراك والمصريين فى

(١) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٤ .

ناحية ، ولم يتخلف منهم إلا طاهر باشا الذى قيل إنه مريض ، وانتحى ضباط الأسطولين الفرنسى والبريطانى ناحية أخرى .

« وبعد التعارف وألفاظ التحية التركية المعتادة بدأ أميرا البحر حديثهما بأن قالا لإبراهيم إنه على أثر المعاهدة المعقودة بين إنجلترا وفرنسا والروسيا ، أصبح واجباً مفروضاً عليهما أن يمنعا جميع الإمدادات التى ترسل بطريق البحر ضد بلاد اليونان ، سواء أكانت رجالا أم سلاحاً أم غيرهما ، وسواء أجاءت من تركيا أم من إفريقية بوجه عام . ولكى يكون أميرا البحر صريحين كل الصراحة فى العلاقة التى يرغبان أن تقوم بينهما وبينه ، قرأا له بالتفصيل ما عندهما من التعليمات عن النقطة التى دار حولها الحديث .

« فأجاب إبراهيم بأن أميرى البحر يعرفان من غير شك أنه جندى مثلهما ، وأن إطاعة الأوامر فرض واجب عليه كما هى فرض واجب عليهما ، وأن أوامره تحتم عليه أن يهاجم هيدرا ، وأن عليه أن ينفذ هذه الأوامر ، وأن واجباته مقصورة على العمل ولا تشمل المفاوضة ، وأنه يحيلهما إلى سيده الأعلى ليبحثا معه الأمور السياسية . وقد أجاب أميرا البحر بأنهما يدركان ما يشعر به كل رجل شجاع مثله فى هذه الظروف ، وأنهما يهنئانه على أن أمامه قوة لا يستطيع مقاومتها . وقد ذكراه بأنه إذا خرج إلى عرض البحر متحديا تحذيراتهما الودية ، فإنهما مضطران إلى تنفيذ ما لديهما من الأوامر . فإذا قاومهما بالقوة ترتب على هذه المقاومة تدمير أسطوله كله ، وذلك يعد منه عملا طائشاً لا يوافق عليه السلطان . ثم قال القائدان إنهما لو كان همهما مراعاة شعورهما من حيث هما رجلا حرب ، لكان عناده هذا وسيلة إلى رفع منزلتهما ، وقد يكون ذلك مما يرغبان فيه . ولكنهما فى الظروف الحاضرة ، والعلاقات بين الحلفاء والأتراك

علاقات ود وصداقة ، يأسفان كل الأسف إذا وقع بينهما حادث يمكن أن يكدر صفو هذه العلاقات الودية . ولذلك فإن الحكومات الثلاث ترغب رغبة صادقة فى تجنب كل ما قد يؤدى إلى قطع هذه العلاقات . وأوامرها فى ذلك صريحة لا تترك مجالا للشك .

« وهذه الرغبة الصادقة التى ينطوى عليها صدرهما هى التى جاءت بهما إلى ذلك المكان ليطلعاه على حقيقة الموقف . وهما يرغبان فى التصريح بهذا أمام الرؤساء مجتمعين ، حتى لا يكون ثمة مجال للشك فى مقاصد أميرى البحر الحقيقية ، وحتى لا يُحدث اتصال أميرى البحر به أية ريبة فى نفوس الضباط .

« فأجاب إبراهيم بأنه يقرهما على مافى قولهما من خطر ، وأنه يعلم أنه لما صدرت إليه الأوامر من الآستانة لم يكن أحد يدرك حقيقة الأمور ولا خطر التصادم مع الأساطيل المتحدة ؛ ولذلك فهو يتعهد بوقف جميع الأعمال الحربية التى تقوم بها القوات البرية والبحرية المكونة لحملة الإسكندرية ، حتى يتلقى ردا من الآستانة والإسكندرية على يد رسول سيبعث به إلى كلتا المدينتين على الفور ؛ وستبقى الحملة خلال هذه المدة فى مياه نوارين . وطلب فى نفس الوقت أن يسمح له بإرسال سفينتين تحملان رسالتين إحداهما إلى الإسكندرية والأخرى إلى بريفيزا ، فأجيب طلبه فى الحال ؛ بل إن الأميرين فعلا أكثر من ذلك ، إذ عرضا عليه أن يرسلا سفينة تضمن لهما سلامتهما . فأجاب بأن فى هذا مساساً بالراية التركية .

« فأجابه القائدان بأنهما يرضيان بهذا الوعد منه ، وأنهما يثقان بشرفه كما يحبان أن يثق هو بشرفهما . وعند ذلك وضع إبراهيم يده على صدره وقال : إنه وعد مقدس ؛ ولكنه أضاف إلى ذلك قوله : إننى مع هذا الوعد لا يسعنى

إلا أن ألاحظ أنى لا أرى من العدل أن تفرضا علىّ هذا الفرض وتسمحا لليونانيين بأن يواصلوا أعمالهم العدائية » .

« وعند ذلك أجابه أميرا البحر بأن ثمة فرقاً بين الحالين ، لأن اليونانيين قد قبلوا وساطة الحلفاء أما الأتراك فإنهم لم يقبلوها . وقال السير إدورد كدرنجتن بعد ذلك إنه يجب أن يثبت لإبراهيم روح الإنصاف التى يرغب أن يسير عليها ، ولذلك سيمنع بنفسه اللورد كخرين من أن يثير نقع فتنة اعتزم إثارتها خارج ميدان القتال الحقيقى . وبذلك انتهى الاجتماع وعاد أميرا البحر إلى سفينتيهما . وفى صباح اليوم الثانى (يوم ٢٦) جاء المستر أبرو Abro ترجمان الباشا إلى البارجة آسيا وأبلغ السير إدورد كدرنجتن أن الأنباء وصلت إلى إبراهيم بعد رجوعهما بأن اللورد كخرين قد هاجم پتراس Patras ، وأن أول ما حدثته به نفسه عندما سمع بهذا النبأ هو أن يرفع مراسيه ، فيقطع حبل المهادنة ويخرج إلى البحر فى ظلمات الليل . ولكنه عاد لحسن الحظ ففكر فى الأمر مليا وأوفده إليه ليستأذنه فى إرسال قسم من أسطوله إلى پتراس . لكن هذا الطلب رفض رفضاً باتا ، واتفق أن يعود المستر أبرو إلى السفينة إذا كان الباشا لا يزال مصرا على أن له الحق فى تعزيز حامية پتراس . أما إذا تقيد الباشا بقرار أمير البحر الذى تم الاتفاق عليه فى الليلة السابقة ، فليس ثمة ما يدعو لأن يجيئه برسالة أخرى . على أن المستر أبرو لم يعد ، وخرجت السفينتان آسيا وسيرين إلى عرض البحر فى تلك الليلة نفسها .

« وبعد أن وصل الطرفان إلى هذه النتيجة ، وبخاصة بعد أن وعد إبراهيم بشرفه أن يتمسك بالمهادنة ، أراد أن يتكلم فى موضوعات أخرى لا تمت إلى المعاهدة ونحوها بصلة . ولكن السير إدورد كدرنجتن قال للترجمان (أبرو) : « أحب أن أعرف قبل أن أختم هذا الحديث ، هل فهم سمو الأمير كل ما قلته لك أنا وأمير البحر ده رنى ؟ فأجابه : « نعم فهمه كله » .

« هنرى . س . دير : سكرتير نائب أمير البحر

« السير إدورد كدرنجتن : الحائز لنيشان الحمام من الطبقة الثانية

« هبرت كرادك : لفتننت كولونيل

« إدورد كرزن : قائد السفينة آسيا (١)

وهذه المذكرة غير مؤرخة ولكنها تجمل ما حدث فى الاجتماع الذى عقد فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٢٧ . وأكبر ظننا أنها كتبت بعد أن حاسبت وزارة الخارجية كدرنجتن على ما فعل حساباً عسيراً . والذى يحملنا على هذا القول أننا لا يخالجنا شك فى أن التقرير الرسمى الصريح الخاص بهذا الحادث ، والذى كتب وقت وقوعه ، قد كتبه كدرنجتن نفسه ووقعه بإمضائه . على أنه لا يمكن الطعن فى صدق هذه المذكرة أو الشك فى أمانتها ، لأن الإخلاص يتجلى فى كل سطر من سطورها . ولنعد على القارئ الفقرة الآتية منها :

« ولذلك يتعهد بوقف الأعمال الحربية التى تقوم بها القوات البرية والبحرية المكونة لحملة الإسكندرية ، حتى يتلقى ردا من الآستانة والإسكندرية على يد رسول سيبعث به إلى كلتيهما على الفور . وستبقى الحملة خلال هذه المدة فى مياه نوارين » .

ذلك قول صريح يشير إلى قسم معين من الحملة ، ولا يشمل جميع الجند والبوارج الحربية التى يقودها إبراهيم ؛ بل ينطبق فقط على « القوات البرية والبحرية المكونة للحملة الآتية من الإسكندرية » . ومما يدعو إلى الأسف أن نوع هذه الفرقة البحرية والبرية وقوتها لم يعينا فى الوثيقة تعييناً مضبوطاً . وقد يكون فى وسعنا أن نصل إلى حقيقتها إذا رجعنا إلى سجلات أخرى . ولكن

(١) بورشير فى كتابها السالف الذكر الجزء الثانى ص ٥ .

اهتمامنا الآن ليس موجهاً إلى الحقائق الخاصة بالحملة فى ذاتها ، بل نحن فى صدد البحث فى موقف جنديين صريحين يفصلهما كما قلنا من قبل حاجز من اللغة .

ولم يكن أمر القوات البحرية والبرية التى يقودها إبراهيم خافياً عليه . ذلك بأنه قد مضت عليه وهو فى بلاد المورة شهور عدة قاد فى خلالها هذه القوات البرية إلى النصر ، قبل أن ترسل إليه الإمدادات ، وقبل أن تصله الحملة من الإسكندرية . وكان كدرنجتن جنديا كمعظم الجنود لا يتسع عقله للتفكير فى أكثر من شىء واحد ؛ وكانت أفكاره كلها محصورة فى حملة الإسكندرية . وليس ببعيد أنه خلط بين هذه الحملة و بين جميع جيوش إبراهيم وعمارته البحرية ، فغفل بذلك عن الجنود الذين كانوا فى بلاد المورة منذ شهور ، وعن السفن التى كانت تشد إزرهم منذ ذلك الحين . ومهما يكن من الأمر فإن المذكرة التى كتبها الضباط البريطانيون لا تترك مجالا للشك فى أن إبراهيم لم يوافق على وقف جميع الأعمال الحربية حتى يأتيه « الرد من الآستانة والإسكندرية » .

وليس أدل على المعنى الذى كان يفهمه إبراهيم من الاتفاق الذى عقد بين الطرفين ، من « مجئ أبرو ترجمان الباشا فى صباح اليوم الثانى إلى السفينة آسيا و إبلاغه كدرنجتن أن إبراهيم قد وصلته قبل مجيئه أنباء بأن لورد كخرين هاجم پتراس ، وأن أول ما حدثته به نفسه عند ما سمع بهذا النبأ هو أن يرفع مراسيه ، فيقطع حبل المهادنة ، و يخرج إلى البحر فى ظلمات الليل » . فلو أنه كان يشعر بأنه مغلول اليدين والرجلين ، لما حدثته نفسه أول ما حدثته بأن يقطع حبل المهادنة و يخرج إلى البحر ، ومعه كما نظن السفن التى كانت لديه قبل مجئ حملة الإسكندرية .

وكل الذى نعرفه عن أول حديث حدثت به إبراهيم نفسه هو ما نقله

الترجمان إلى أمير البحر البريطانى ، على أننا نعرف أن كدرنجتن أبى أن يسمح له بتعزيز حامية بتراس ، وأنه قيل للترجمان إن على المستر « أبرو أن يعود إلى السفينة إذا كان الباشا لا يزال مصرا على أن له الحق فى تعزيز حامية بتراس ؛ أما إذا تقيد الباشا بقرار أمير البحر الذى تم الاتفاق عليه فى الليلة السابقة ، فليس ثمة ما يدعو لأن يجيئه برسالة أخرى . على أن المستر أبرو لم يعد وخرجت السفينتان آسيا وسيرين إلى عرض البحر فى تلك الليلة نفسها » .

هذه الحادثة تظهر الدور الخطير الذى اضطلع به المترجمون فى المسألة كلها . ونحن وإن كنا لا نعلم شيئاً عن ماضى هذا المستر أبرو ولا عن حياته بعد ذلك الوقت ، فإن معرفتنا الخاصة بالشرق وأحواله تحملنا على الظن بأنه لم يكن تركيًا ولا ضابطاً فى الجيش التركى ، بل رجلاً من أبناء البلاد الواقعة فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، يعرف عدة لغات ، ويشمخ بأنفه ويتيه كبرياء ، إذ يرى نفسه قبلة الأنظار . ولسنا نعرف هل وجد إبراهيم حال رجوعه إلى مقر القيادة العامة وقبل أن يمضى الزمن الذى حدده أمير البحر ؛ وكل ما فى وسعنا أن نقوله على سبيل التحقيق أن جواب كدرنجتن يجعل هذا المستر أبرو المحور الذى تدور حوله المفاوضات ، وأنه ليس من السهل أن نتأكد مما نقله إلى إبراهيم ، الذى كانت مواد المذكرة تخوله الحق المطلق فى أن يعالج الحال التى نشأت فى بتراس باستخدام أى قسم من عمارته البحرية إلا « القوات البرية والبحرية المكونة لحملة الإسكندرية » .

ومما يدل على أن أمير البحر البريطانى لم يفهم العبارة السابقة حق الفهم ، خطاب أرسله إلى لورد استرتفورد ده ردكلف عقب رجوعه من الاجتماع مباشرة . فقد أرسل إلى السفير البريطانى يقول : « إن أكبر ظنه أنه (إبراهيم)

لن يصله الرد قبل مضى شهر من الزمان ، و إنه سيظل فى خلال هذه المدة مكتوف اليدين »[١] . غير أننا نتبين من خطاب كتبه كدرنجتن إلى زوجه فى السادس من شهر اكتوبر سنة ١٨٢٧ أن إبراهيم لم يبق مكتوف اليدين حينما كان اليونانيون يجيشون الجيوش لمحاربته .

فقد قال فى هذا الخطاب : « وفى الساعة التاسعة صباحاً ألقينا مراسينا عند رأس بابا حيث نقيم الآن . . . ورأس بابا واقع عند باب خليج پتراس ، وهذا الخليج فى مدخل خليج ليپنتو Lepanto . وقد بعثت إليك بخطابى الأخير من زانتى Zante فى اليوم الثالث من هذا الشهر ، حينما كان إبراهيم وأسطوله على ما نظن فى طريقهما إلى نوارين تنفيذاً للأوامر التى لديهما . ويخيل إلى أن إبراهيم قد انتهز فرصة الجو القذر فاتجه نحو پتراس ، وأن ريحاً عاصفة كانت تهب من الخليج أوقفته عند هذا الرأس ، حيث رأينا سفنه وسفن قواده وغيرهم راسية ، عند ما اقتربنا منه ونحن نطارده لنمنع حركاته »[٢]

و إذا كان كدرنجتن قد استخدم فى خطابه لزوجته عبارة الجو القذر وعبارة أخرى من نوعها فإنه كان فى خطابه الرسمى إلى الضابط التركى الذى كان على رأس الأسطول العثمانى أكثر أدباً و إن لم يكن أقل صراحة فقد قال :

« سيدى : لقد وعدنى سمو إبراهيم باشا بشرفه ، كما وعد أمير البحر الفرنسى ، على مشهد من رؤساء حملته و بموافقتهم ، أن لا تبرح سفينة من سفن الأسطول التركى مياه نوارين إلا بإذن منا . ولكنه قد نكث عهده هذا ، ولذلك فإنى لن أثق بعد الآن بكلمته ولا بكلمة أحد من الضباط الذين يعملون تحت قيادته .

(١) بورشير الجزء الثانى ص ٢١ .

(٢) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٣٩ .

وبناء على ذلك فإن السفن الموجودة هنا ، والتى يقودها الآن مصطفى بك ، لن يسمح لها بالعودة إلى ثغر نوارين أو أى ثغر آخر فى أوربا واقع على هذا الجانب من الدردنيل » .

وبهذا يؤكد أمير البحر البريطانى أنه فهم أن اتفاق ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٢٧ ينطبق على جميع السفن الراسية فى مياه نوارين ؛ ولا شك مطلقاً فى أنه كان يعتقد صحة ما يقول . غير أن من الإنصاف أيضاً أن نحاول فهم ما كان يجول فى خاطر إبراهيم . ولن نعيد مرة أخرى نص المذكرة الذى يدل على أن عهده لم يكن شاملا عاما كما فهمه كدرنجتن ، بل سنختار منها الفقرة الآتية :

« وقال السير إدورد كدرنجتن بعد ذلك إنه يحب أن يثبت لإبراهيم روح الإنصاف التى يرغب أن يسير عليها ؛ ولذلك سيمنع بنفسه اللورد كخرين من أن يثير نقع فتنة اعتزم إثارتها خارج ميدان القتال الحقيقى . وبذلك انتهى الاجتماع وعاد أميرا البحر إلى سفينتيهما » .

فالمذكرة إذن تدل على :

« أن إبراهيم قد قال : « لا أرى من العدل أن تفرضا على هذا الفرض وتسمحا لليونانيين بأن يواصلوا أعمالهم العدائية » .

(٢) وأن كدرنجتن أكد أنه سيعمل على منع قيام الثورة التى شرع اللورد كخرين يثيرها « خارج ميدان القتال الحقيقى » .

(٣) وأن إبراهيم أرسل فى اليوم الثانى يقول إنه « قد وصلت إليه الأنباء قبل ذلك بأن اللورد كخرين هاجم پتراس » .

والذى يفهم من هذه الظروف المتسلسلة أن إبراهيم كان يعد سيطرة كدرنجتن على أعمال اللورد كخرين شرطا أساسيا هاما من شروط الاتفاق بينه وبين ذلك السيد .

والذى يتبادر إلى الذهن أن إبراهيم كان يظل ساكناً فى نوارين لو استطاع أمير البحر أن يسيطر على القائد الإنجليزى للقوات اليونانية . وسواء أكان هـذا الفرض خطأ أم صواباً ، فإن كدرنجتن كتب إلى وزارة البحرية البريطانية فى العاشر من شهر اكتوبر سـنة ١٨٢٧ تقريرا يقول فيه : إن اللورد كخرين رفض هـذا الطلب عند ما عرض عليه . وإليك ما جاء فى هذه الوثيقة الرسمية :

« لقد شكوت مرارا من سلوك اللورد كخرين الشاذ ، والآن أرجو أن يبلغ صاحب السمو الملكى القائد الأعلى للأسطول أنى تلقيت فى الثالث والعشرين من الشهر الماضى خطاباً من سعادة اللفتننت جنرال السير فردريك آدم Lieutenant General Sir Frederick Adam يقول فيه إنه وصل إلى علمه أن قسما من الأسطول اليونانى بقيادة فخامة اللورد ، يحمل عددا كبيرا من الجند وعلى رأسهم الجنرال تشرش ، يوشك أن يهاجم بعض بلاد الولايات الألبانيـة الواقعـة فى شمال خليج پرفيزا Prevesa . وعنـدئذ أسرعت بإرسال السفينة فلومل Philomel إلى حيث يوجد اللورد كخرين ، وأرسلت معها الأوامر إلى القائد اللورد ڤيكونت إنچسترى Commander Lord Viscount Ingestrie ، بأن يبلغ قواد الحملة بأنى أرى من الواجب على فى هذه الظروف أن أمنعهم من القيام بهذا العمل ، وأننى سأكون فى القريب العاجل بالقرب من ذلك المكان . وقد التقيت بالسفينة « فلومل » تجاه رأس بابا فى الخامس من هذا الشهر ؛ ونقل إلى اللورد إنچسترى أنه عند ما أبلغ الأمر إلى اللورد كخرين وعد فخامتـه أن يسترشد بروحه . ثم قصد اللورد إنچسترى خليج ليپنتو حيث نقل هذا البلاغ بعينه إلى الجنرال تشرش ، الذى صرح هو أيضاً بأنه سيعمل به . وكان

هذا القائد فى اليوم الرابع من هذا الشهر عند قستنزا Vostitza يدبر أمر حصار پتراس برا . ثم تلقيت بالأمس رسالة أخرى من السير فردريك آدم يبلغنى فيها خبر نزول قسم من قوة لورد كخرين فى جزيرة بتالا Petala ، ويطلب أن ترسل إليه فرقاطة لتساعده . وإذ كنت واثقاً أن السفينة أدريانى Adriane قد وصلت كرفو بعد زمن قليل من تاريخ هذا الخطاب ، وإذ كان قد بلغنى أن هلاس Hellas شوهدت بالقرب من كفلونيا فى الثامن والعشرين من سبتمبر تقطر مركباً بخاريا متجهـة به نحو الجنوب ، فإنى أعتقد أن لدى فخامة المندوب السامى الوسائل الكافية لإعادة تلك الجزيرة إلى حيادها السابق »[1] .

وكفى بهذا الخطاب المرسل إلى وزارة البحرية البريطانية دليلا قاطعاً على إخلاص اللورد كدرنجتن ، وإن كان هذا الإخلاص فى غير حاجة إلى دليل . لـكن اللورد كخرين والجنرال تشرش وإن كانا إنجليزيين ، كانا يقودان القوات اليونانية ، ولم يكونا خاضعين لأوامر أمير البحر البريطانى بحال من الأحوال . غير أن ما نعلمه نحن وما يسجله التاريخ لا شأن له بإدراك إبراهيم لهذه المسألة . وكانت كلمـات أمير البحر البريطانى لا تزال ترن فى أذنيه ، وكان عليه أن يفكر فى التبعة الملقاة عليه أمام والده وأمام السلطان . ولم يكن فى مقـدوره أن يفهم كيف يعجز كدرنجتن عن إرغام اللورد كخرين والجنرال تشرش على إطاعة ما يصدر لهما من الأوامر . ولذلك يلوح لنـا أن إخلاصه كإخلاص أمير البحر البريطانى لا مطعن فيه ولا مغمز . وخير ما نطرى به هذا الإخلاص هو العبارة التى نقلناها من قبل .

لـكن كدرنجتن كان واثقاً من غدر إبراهيم وثوقا جعله يكتب ما يأتى إلى زوجه :

(١) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٤٦ .

« ثم جاءنى نائب أمير البحر التركى شارحاً ومفسراً ؛ فقلت له إننى كنت أحترم الأتراك قبل أن ينكثوا عهدهم ، وكنت أحب أن أعمل لإنقاذهم من ورطتهم بقدر ما تصل إليه طاقتى . أما الآن فقد أصبحت أتحين الفرصة للإيقاع بهم ، وإذا لاحت لى فسأقتص منهم أشد القصاص »[١] .

وليس يصعب على الرجل الذى يتحين الفرصة لعقاب إنسان أن يخلق من الظروف ما يوصله إلى غرضه . على أننا لا نقول إن ضباط أسطول الحلفاء قد فعلوا هذه الفعلة ، وإنما نقول إن القائد الروسى انضم إلى زميليه فى اليوم الثالث عشر من شهر أكتوبر سنة ١٨٢٧ ، وإن أمراء البحر الثلاثة أصدروا بعد أربعة أيام من ذلك التاريخ بلاغاً مشتركا ينحون فيه على إبراهيم باللائمة لأنه تقدم نحو سهل كلماتا Kalamata وأنزل الخراب والدمار أينما حل ، وأخذ يجهز قوة يهاجم بها إقليم ماينا Maina . ويقول البلاغ بعد ذلك إن « هذه الأعمال تناقض شروط الهدنة التى وعدتم سموكم بشرفكم أن تحافظوا عليها حتى يعود رسولاكم »[٢] .

ولو أن أمراء البحر المتحالفين اتهموا إبراهيم بأنه استخدم فى هذه الحركات العدائية (قسما من) « قواته البرية والبحرية المكونة لحملة الإسكندرية » لكان ما وجهوه إليه من اللوم متفقاً مع الفكرة القائلة بأن موقف العناد الذى وقفه اللورد كخرين والجنرال تشرش لم يكن مخالفاً لاتفاق ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٢٧ . لكن أولئك الضباط لم يذكروا شيئاً خاصا بحملة الإسكندرية ؛ بل جاء لومهم عاما شاملا ، وأغفلوا فيه شروط المذكرة التى كتبها مرءوسو كدرنجتن ؛ وأظهروا أن تفكير

(١) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٣٤ .

(٢) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٣٤ .

الطرفين حينما أبرم الاتفاق فى التاريخ الذى ذكرناه مراراً من قبل ، كان يختلف كل الاختلاف . ولذلك فإن الحلفاء حينما بنوا عليه التهم التى وجهوها إلى إبراهيم فى ١٧ أكتوبر سنة ١٨٢٧ ، غفلوا عن الخلاصة التى كتبوها هم عن اجتماعهم . ومما زاد الطين بلة أنه لما أراد الكبتن فلوز Captain Fillowes أن يبلغ هذا القرار إلى إبراهيم ، كان القائد المصرى فى داخلية البلاد ، ولم يستطع الرسول لقاءه[1] .

ولم ينس ده رنى قبل أن يتهم إبراهيم بنكث عهده أن فى الأسطول التركى ضباطاً بحريين فرنسيين . وإذ لم يكن يرغب فى أن يصوب نيرانه إليهم قبل أن يهيئ لهم فرصة الانسحاب من خدمة الوالى ، فقد أرسل إليهم خطاباً هذا نصه :

« من أمير البحر ده رنى إلى المسيو لتلييه Letellier والمسيو بمپارد Bompard وغيرهما من الضباط الفرنسيين فى الأسطول التركى :

سيرين فى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٢٧ .

سادتى : إن الظروف التى تحيط بالأسطول العثمانى الآن وهو محصور فى ثغر نوارين ، و بسمو إبراهيم باشا الذى نكث عهده ، وأخل بشروط الهدنة التى اتفق أن يراعيها ، إن هذه الظروف تحتم عليكم أن لا تبقوا بعد الآن واقفين من رايتكم موقف العداء ، وهو موقف لا تخفى عليكم عواقبه . فإذا دعوتكم لأن تتخلوا عن خدمة الأتراك فى الوقت الذى يتحفز فيه الأسطول العثمانى للاعتداء ، والذى يوجب عليه أن يتحين كل ما لديه من الفرص ، إذا دعوتكم إلى ذلك فإنما أبعث إليكم بتحذير يجب عليكم أن تستفيدوا منه إذا كنتم لا تزالون فرنسيين[2] » .

(١) دون فى كتاب نوارين السالف الذكر ص ٢٧٣ .

(٢) بورشير فى كتابها السالف الذكر الجزء الثانى ص ٥٥ .

ويقول لنا دون Douin إن جميع الضباط البحريين الفرنسيين ظلوا فرنسيين ، فتخلوا[١] عن زملائهم الأقدمين فى الساعة السادسة من صباح اليوم الثامن عشر من شهر أكتوبر سنة ١٨٢٧ . وفى اليوم التالى أصدر أمير البحر البريطانى « أوامره عن كيفية دخول الأسطول المشترك فى ثغر نوارين » . ويخيل إلينا من الاطلاع على نص هذه الأوامر أنه لم يكن وقتئذ يعرف أن الضباط الفرنسيين قد انسحبوا من خدمة المصريين ، وذلك لأنه شدد « أن لا تطلق قذيفة من الأسطول المتحد قبل أن تعطى إشارة تدل على ذلك ، إلا إذا أطلقت النار إحدى البوارج التركية ، ففى هذه الحال يجب أن تدمر السفن التى أطلقت النار على الفور[٢] » .

وهاك ما حدث فى اليوم المتمم للعشرين من شهر أكتوبر ، منقولا عن تقرير بعث به كدرنجتن فى الحادى والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٨٢٧ من البارجة آسيا الراسية فى ثغر نوارين :

« اتفقت أنا والكونت هيدن Count Heiden والشفلييه ده رنى على أن نأتى إلى هذا المكان لكى نحمل إبراهيم باشا على أن يمتنع عن الحرب الوحشية الماحقة التى أوقد نارها فى هذه البلاد منذ أن عاد مخذولا من خليج پتراس . وبناء على ذلك جاءت الأساطيل المتحدة مارة أمام بطاريات العدو لترسو فى الساعة الثانية بعد ظهر أمس ...

« ولقد أمرت بأن لا يطلق مدفع من سفننا إلا إذا أطلق الترك مدافعهم أولا ؛ ونفذ هذا الأمر تنفيذاً دقيقا ، فإذن للثلاث البوارج الإنجليزية أن تمر من

(١) دون فى كتابه السالف الذكر ص ٢٨٠ .
(٢) بورشير الجزء الثانى ص ٦٩ .

أمام البطاريات وأن ترابط فى أماكنها من غير أن تقوم بعمل عدائى ، مع أنه قد تبين أن جميع السفن التركية كانت تعد عدتها للاعتداء . ولكن لما أرسلت البارجة دارتموث Dartmouth قاربا من قواربها إلى إحدى الحراقات ، أصيب الملازم . ج . و . ه . فتزروى G. W. H Fitzroy و بعض بحارتها بطلقات من بنادق الأعداء ، فأجابت البارجتان دارتموث ولاسيرين La Syrène بإطلاق نار دفاعية من البنادق على العدو . ولاسيرين هى السفينة المعقود لواؤها للقائد ده رنى . وعلى أثر ذلك أطلقت إحدى البوارج المصرية قذيفة من أحد مدافعها على سفينة القائد ده رنى ، فرد عليه بالمثل ، ولم يمض إلا قليل من الزمن حتى حمى وطيس القتال واشتركت فيه السفن كلها .

« ودامت هذه المعركة الطاحنة أربع ساعات كاملة لم يخب فيها سعيرها ؛ فلما سكتت تكشفت عن منظر من التدمير والتخريب قلما رأى الناس مثله من قبل . وكانت كلما تعطلت سفينة من سفن أعدائنا وعجزت عن القتال ، حاول الذين استطاعوا النجاة من بحارتها أن يضرموا النار فيها ، فكانت نجاتنا من انفجاراتها المتتابعة المروعة أمرا عجيبا . ولما وجدت أن العثمانيين قد ضحوا بكلمة الشرف التى يتباهون بها فى سبيل التخريب الوحشى الطليق ، وأن القوم قد انتهزوا فرصة ثقتنا بصدق إبراهيم فانتفعوا بهذه الثقة أدنأ انتفاع ، شعرت بالرغبة فى الاقتصاص من أولئك الآثمين . ولكننى رأيت من الواجب أن أكف عن هذا القصاص فكففت[1] » .

وكتب كدرنجتن خطابا لزوجته فى الساعة العاشرة من صباح يوم الموقعة استهله بقوله :

« لقد حارب الأتراك يا عزيزتى وأحسنوا الحرب ؛ ولقد دمرنا أسطولهم

(١) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٧١ .

فجعلناه أثرا بعد عين ؛ ولكننا بذلنا فى سبيل ذلك ثمنا غاليا ، فقد فقدنا اسمث Smith المسكين والكبتن بل Captain Bell من رجال البحرية وغيرهما من خيار رجالنا ؛ وكثيرا ما دارت بى السفينة ؛ ولم ينج هرى (ولده) من جرح صغير سيضمن له الترقى حينما يتم مهمته . وقد أراد أن يكتب إليك بنفسه ولكننى أحب أن يبقى ساكناً هادئاً حتى لا تصيبه حمى مهما كانت طفيفة ، ولذلك لن أسمح له بالكتابة ؛ ولقد زرته فى إحدى حجرات المستشفى الذى بالبارجة فوجدته مستغرقا فى النوم »[١] .

وكتب أمير البحر البريطانى إلى أخيه خطابا يقول فيه إن « ولدى العزيز هرى جرح جرحا بليغا ولكنه يتماثل للشفاء ؛ ويقينى أن التحسن سيظل مطردا لأن الحمى لا أثر لها فى جسمه ، ولأنه هادئ الطبع هدوءا يبعث على السرور والارتياح »[٢] .

وكان إبراهيم حينما حدثت هذه المعركة ، التى انقدت نارها بسبب خطأ موبق ، بعيدا عن موطن القتال بعدة أميال ؛ ودمر أسطوله وهو فى داخل البلاد يطارد اليونانيين . ولقد أظهر من ضروب البسالة ما لا مثيل له فى التاريخ . ولو أنه كان قد نكث عهده مع الحلفاء لعرف أن الحرب لا محالة واقعة بينه وبينهم ؛ وذلك لأنه لم يكن بالرجل الأبله . وأقوى دليل على أنه هو وكدرنجتن لم يفهم كلاهما صاحبه ، أن إبراهيم لم يتسلم خطاب أمير البحر البريطانى المرسل إليه فى ١٧ اكتوبر سنة ١٨٢٧ ، وأنه غادر نوارين ليهاجم العدو بالجنود الذين لم يكونوا فى اعتقادنا من « القوات البرية والبحرية المكونة (لجزء من) حملة الإسكندرية » . ولو أنه عرف ما كان يجول فى خاطر أمير البحر البريطانى لما غاب عن نوراين فى ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧ .

(١) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٧٧ .
(٢) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٩٠ .